الكتابات السياسية الكاملة

القائد المؤسس ميشيل عفلق

في سبيل البعث - الجزء الأول

الباب الاول - أفكار وتأملات

عهد البطولة

(تشرين الأول/أكتوبر 1935

الآن تنطوي صفحة من تاريخ نهضتنا العربية، وصفحة جديدة تبدأ، تنطوي صفحة الضعفاء الذين يقابلون مصائب الوطن بالبكاء، وبأن يقولوا (لا حول ولا قوة إلا بالله)، صفحة النفعيين الذين ملأوا جيوبهم ثم قالوا: (لا داعي للعجلة، كل شيء يتم بالتطور البطيء)، صفحة الجبناء الذين يعترفون بفساد المجتمع إذا ما خلوا لأنفسهم حتى إذا خرجوا إلى الطريق كانوا أول من يطأطئ رأسه لهذه المفاسد...

وتبدأ صفحة جديدة، صفحة الذين يواجهون المعضلات العامة ببرودة العقل ولهيب الإيمان، ويجاهرون بأفكارهم ولو وقف ضدهم أهل الأرض جميعاً، ويسيرون في الحياة عراة النفوس. هؤلاء هم الذين يفتتحون عهد البطولة.

عهد البطولة، وأكاد أقول عهد الطفولة، لأن النشيء الذي يتأهب اليوم لدخول هذه المعركة له صدق الأطفال وصراحتهم، فهو لا يفهم ما يسمونه سياسة، ولا يصدق أن الحق يحتاج إلى براقع، والقضية العادلة إلى تكتم وجمجمة.

حياة هؤلاء ستكون خطاً واضحاً مستقيماً لا فرق بين باطنها وظاهرها ولا تناقض بين يومها وأمسها، فلا يقال عن أحدهم (نعم... إنه سارق ولكنه يخدم وطنه)، ولا يقودون في الصباح مظاهرة، ويأكلون في المساء على مائدة الظالمين. الصلابة في الرأي صفة من أجل صفاتهم، فلا يقبلون في عقيدتهم هوادة، ولا يعرفون المسايرة.

فإذا رأوا الحق في جهة عادوا من أجله كل الجهات الأخرى، وبدلاً من أن يسعوا لإرضاء كل الناس أغضبوا كل من يعتقدون بخطئه وفساده، إنهم قساة على أنفسهم، قساة على غيرهم، إذا اكتشفوا في فكرهم خطأ رجعوا عنه غير هيابين ولا خجلين، لأن غايتهم الحقيقة لا أنفسهم، وإذا تبينوا الحق في مكان أنكر من أجله الابن أباه وهجر الصديق صديقه.

هؤلاء، اليوم قليلون وربما أصبحوا في الغد أقل إذا اصطدموا بالمصاعب التي تنتظرهم، ورأوا الويلات تنزل بهم واللعنات تنصب عليهم، ولكن المستقبل لهم لأنهم يفصحون عن مشاعر ملايين الناس الذين قص الظلم ألسنتهم.

إن الأسلحة التي تهدد هذا النشيء كثيرة مختلفة، وثمة سلاح أمضى من السجن والتعذيب، هو سلاح البرودة التي يقابل بها بعض مواطنيه، والابتسامة الساخرة التي يجيبون بها على ندائه وحماسته. إنهم سيقولون (دعوا هؤلاء، الأطفال يلعبون برهة من الزمان ويحاولون تناول القمر بأيديهم القصيرة، إن الواقع كفيل بإرجاعهم إلى العقل)، ولكن واجب هذا النشيء أن تزيده برودة مواطنيه غيرة وإيماناً، وأن يذكر أن بقاء بلاده حتى الآن في تأخرها المعيب هو من جراء هذه الابتسامة الساخرة التي يتسلح بها الضعفاء كلما دعاهم الواجب واستيقظ في ضمائرهم صوت الحق.

ليست البطولة دائماً في المهاجمة، بل قد تكون كذلك في الصبر، والثبات، وليست الشجاعة في محاربة العدو الظاهري فحسب، بل إنها هي أيضاً - وعلى الأخص - محاربة العدو الباطني، أي أن يحارب المرء في نفسه اليأس والفتور وحب الراحة.

في هذا العهد الجديد الذي بدأت تباشير صبحه تختلج في الأفق، نريد أن تكون النهضة والاستيقاظ في كل عواطفنا الشريفة ومواهبنا العالية، لا أن تنحصر اليقظة في عاطفة واحدة ضيقة. لم يعد يرضينا أن نسمع أن ذلك الشخص وطني إذا لم يكن في الوقت نفسه إنسانياً، عفيف النفس، كريم الخلق، فالعاطفة الوطنية إذا لم تكن مصحوبة بهذه الصفات قد لا تكون غير مجرد كره للأجنبي.

وهذه ليست غايتنا. لسنا نطلب الاستقلال لننعزل عن بقية الشعوب، ونقيم سداً بيننا وبين الحضارة الإنسانية. لسنا نصبو إلى الحرية لنعيش في الفوضى، أو نرجع إلى ظلام القرون الوسطى. إننا نطلب الاستقلال والحرية لأنهما حق وعدل قبل كل شيء، ولأنهما وسيلة لإطلاق مواهبنا العالية وقوانا المبدعة، كيما نحقق على هذه البقعة من الأرض التي هي بلادنا غايتنا وغاية كل إنسان - الإنسانية الكاملة.

المصدر:

ميشيل عفلق، الكتابات السياسية الكاملة، في سبيل البعث، الجزء الأول، الباب الأول: أفكار وتأملات، مقال (عهد البطولة)، تشرين الأول/أكتوبر 1935